مركز النهضة

هذا الموضوع بحاجة إلى بحث مركز، يستهدف **معرفة الشروط التي توفرت لبيئات معينة في فترات محددة، جعلت منها مركزا فاعلا في إنتاج الفكر والحضارة؛** إذ التبست هذه العوامل، **فتلخصت في العامل السياسي غالبا،** إذ كون دمشق عاصمة الأمويين أو بغداد عاصمة العباسيين سبب في الرخاء والازدهار الذي عرفتاه. لكننا نعلم أن البصرة والكوفة وخراسان.. كانت مدنا لا تقل ازدهارا، بل كان لها تأثير خطير على ثقافتنا، فقد يكون المقصود **توفر أسباب التطور للعواصم أكثر مما تتوفر لغيرها.** كما أن البلاط كان حريصا دائما على توفير جو ثقافي كبير؛ لحاجته إليه، وليكتسب سمعة خاصة، وهو ما سيولد عاملا أساسيا في جلب النخبة والعلماء؛ أي استعداد البلاط لفتح المجال وإنفاق الأموال اللازمة في سبيل التنمية والازدهار.

لقد عرف تاريخنا مراكز عديدة ظلت تشع زمنا طويلا، فبالإضافة إلى ما سبق، تألقت حلب وسمرقند وقرطبة وغرناطة وفاس وبجاية وتلمسان والقيروان، وكذلك القاهرة، التي بقي يتلألأ منها ضوء اهتدت بنوره النخبة طيلة عصر الانحطاط، **وقد اشتركت هذه المراكز في التوفر على عدة عوامل كالأموال والرخاء والاستقرار وامتزاج الأجناس وتوفر شيء من الحرية .**

خلفت القاهرة بغداد مباشرة بعد سقوطها، فكان انتقال المنارة (المركز) إلى مصر. فرغم وجود فاس وبجاية وقرطبة في تلك الفترة، إلا أن العيون تحولت إلى القاهرة، وظلت بالفعل حاضرة الشرق كله، بل كان إشعاعها يمتد إلى سائر العالم الإسلامي كلما سقطت حواضره الأخرى. فيمكن – بسبب الموقع والمكانة الإستراتيجية لمصر – أن نفهم لماذا اهتم المسلمون الأوائل بفتح مصر متخذين منها قاعدة لفتوح أخرى، ولماذا جعلها المعز لدين الله الفاطمي مشروعه الرئيسي، أما الأوروبيون فوضعوها على رأس القائمة. لأن سقوط مصر كان يعني لهم انفتاح المجال للتوغل إلى الشام والقدس والشرق كله. ونظرة إلى الخريطة تجعلنا ندرك أهمية موقعها؛ فهي تشرف على الشام والخليج وتتصل بالمغرب العربي والأندلس متوسطة الطريق منه وإليه. فالحجيج والطلبة والرحالة يتوقفون عند هذا المركز العريق في الحضارة، لذا ندرك لماذا بدأ الاستعمار الأوروبي بمصر.

لكن فشل الحملة النابليونية ولّد وضعا خاصا، ونتج عن آثارها وعن تخلخل المركزية العثمانية، وصول محمد علي، ولم يكن له مثيل آنذاك في العالم الإسلامي. كان له مشروع، ينسجم مع تطلعات النخب المختلفة ومع توجه النهضة ذاتها، فصارت مصر المركز؛ لأن نظامه كان يسمح بحرية النشاط وهو ما يغيب تماما في باقي أجزاء الدولة العثمانية " وفي نهاية القرن كانت مصر مؤهلة لتكون على رأس حركة التجديد ". وبالفعل وجد المجددون المصريون، والمهاجرون وعلى الأخص اللبنانيون، جوا ملائما يتوفر على وسائل الاتصال والاحتكاك، ومناخا ملائما لتفجير البذور الأولى لهذه الحركة.

حركة النهضة

لقد غدت هذه الكلمة من أعقد المصطلحات الآن، ومن أكثرها إثارة للنقاش، لاسيما بعد بروز مصطلحات أخرى (التنوير– الحداثة– المعاصرة – ما بعد الحداثة..).

إن ابن منظور (الناحية اللغوية) يقترح علينا طائفة من المعاني، يمكن أن تعود أساسا إلى محورين:

أ– محور الدلالة على **الحركة والقيام** (نهض: قام– انتهض القوم وتناهضوا: نهضوا للقتال– أنهضه: حرّكه للنهوض– أنهضتِ الريح السحاب: ساقته وحملته – طريق ناهض: صاعد في الجبل– النهضة:عتبة تعوق وتتعب الإنسان أو الدابة).

ب– محور الدلالة على **القوة والطاقة والمقاومة** (النهضة: الطاقة والقوة – ناهضته: قاومته– أنهضه بالشيء: قواه به– الناهض: الفرخ الذي قوي جناحاه فاستعد ليطير و النَّهْض: القسر– النّهاض: السرعة.

لقد تجمّع لدينا معنى لغوي عام يختزن ويربط دلالات (الحركة والقيام والطاقة والقوة وتجاوز الصعوبات)، وهو يفصح عن أهم مكونات دلالة المصطلح اجتماعيا وثقافيا، بل إن صورة الفرخ الذي كبر وقوي جناحاه (قوة وطاقة بوسيلة) فاستعد وتأهل للطيران، لذات دلالة رمزية وافية على الحالة التي نحن بصددها.

يقول الكواكبي (1849–1902):" الترقي هو الحركة الحيوية، أي حركة الشخوص، ويقابله الهبوط، وهو الحركة إلى الموت أو الانحلال، أو الاستحالة أو الانقلاب، فإذا رأينا في أمّة آثار حركة الترقي (الشخوص) هي الغالبة على أفرادها، حكمنا لها بالحياة، ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليه بالموت"، فمضمون القيام والصعود هو الغالب على هذه الزاوية من الرؤية، رغم نفاذها إلى صميم التغيير (اجتماعي وإنساني)، ذلك أن النهوض يعقب – طبيعيا ولغويا – السقوط، الغفلة، النوم،الانحطاط. فمفهوم الانبعاث والنهضة هنا يطابق عبارة إتيان سوريو من أنه " بعث عام لنشاط العقل، وأن يكون في الوقت ذاته سبيلا إلى الخروج من الضلال، ومن الظلمات، أو من الانكساف الروحي الذي ساد في القرون الوسطى" لكن " مشكلة التقدم ليست في هذا المنظور إلا تحقيق الارتفاع من درجة المدنية الدنيا إلى الدرجة العليا. وهذا الارتفاع العام للمجتمع وتحوله من حالة متأخرة إلى حالة متقدمة هو ما أطلق عليه الوعي العربي اسم النهضة. **فالنهضة إذن هنا نظرية للصعود من درجة إلى درجة أعلى، أو هي إيصال العرب إلى مستوى الحضارة الكونية** ".

منظور آخر انبنى على اكتشاف الذات من خلال الآخر، أي بالمقارنة مع الغرب، في تطوره وحملته واستعماره الشرس. لقد أطلق خير الدين التونسي (1810–1890) صرخة قوية آنذاك: " إن التمدن الأورباوي قد تدفق سيله على الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار إلا إذا حذوا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرق ". إنها صحوة للعقل استنتجت الواقع الخطير للأمة. ومن خلال ما كتبه رفاعة والأفغاني والكواكبي وابن باديس.. وغيرهم من الرواد، نفهم " أن الفكر العربي اكتشف أول ما اكتشف وجود حياة حديثة مصنوعة خارجه، وعلى حسابه جزئيا". واكتشف أيضا خطورتها عليه إن بقي كما هو، **ولذا فإن النهضة العربية سترتبط بالنضال**، وهي " كنظرية للولوج إلى الحضارة تحدد أولويات، وتصوغ – إذا صحّ التعبير– استراتيجية للعمل الجماعي، وتشير إلى معايير للاختيار بين الجوهر والعرض في هذه الحداثة، وبين الصالح والطالح منها. ومن هنا، **فإن النهضة، كإيديولوجية نضال، ستغطي رسالتين متكاملتين:**

– " الرجوع إلى العصر الذهبي للإسلام و إلى الثقافة المدرسية.

– محاربة التأثير الانحلالي، ومقاومة الاعتداءات العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية والثقافة الغربية، مع العمل أن تتكامل في الشخصية العربية المكتسبات الإيجابية للحياة الحديثة ".

ويمكن أن يعطينا هذا التصور مفهوما واضحا لتلك الجهود التي حفل بها عهد النهضة؛ (ترسيخ مظاهر ومقومات الحياة الحديثة الأوروبية خصوصا– مقاومة الاستعمار والغزو– مقاومة التبعية والانحلال– ترسيخ الهوية في وجه الوافد). لقد أدى الاحتكاك بالغرب والاستعمار على وجه الخصوص، إلى ظواهر ميّزت فترة النهضة:

– **المقاومة والنضال ضد الهيمنة الأجنبية، وضد بقايا عصر الضعف .**

– **البحث والتركيز على دور العقل والعلم**، كاستجابة للحاجات والتحديات الأولى بالنظر إلى مظاهر التفوق الغربي.

– **تقليد الغرب، الذي أخذ صورة التطويع والانتقاء لدى البعض، وصورة التغريب لدى البعض الآخر**، مما أسس الملامح الأولى للصراع الطويل بين الاتجاهين.

<u>ويمكن أن نستنتج مع إتيان سوريو ما يلي:</u>

– إن النهضة هي نتيجة نوع من تبدل كلي في المقتضيات الروحية أكثر مما هي نتيجة أي سبب عرضي آخر.

– إن الوقائع الجمالية [الأدبية مثلا] في خضم هذا التبدل، تأتي من حيث الزمن في طليعة التغييرات الطارئة، وفي مقدمتها.